ما حيلتنا اليوم أن نسأل عن ثقافة التسامح؟

د.فاطمة المومني

تونس

قال تعالى:«خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» سورة الأعراف

مقدمة

لا يخلو التفلسف من عنصر الإثارة الفكرية والقلق المعرفي والتوتر الوجودي ولا يقتصر على إحصاء المنظومات الفلسفية نفسها التي ظهرت عبر التاريخ وان كانت الفلسفة نفسها أطروحات ومقاربات ومذاهب وانساق وكان البحث عن الحقيقة وحب الحكمة وتشريع القيمة وإضفاء المعنى هو ما يجمع بينهما فان هاجس الفلسفة هو إثارة المشاكل وبناء المسائل وإبداع الأجوبة.

وإن كان مطلب التفلسف مطلبا متأصلا في الإنسان، وكان الإنسان هو الذي يعنيه التفلسف من جهة كونه المقصود بهذا المطلب والقاصد إليه، واللافت للنظر إن الكائن الإنساني يجد في ذاته مصدر تفكيره الفلسفي وان التفلسف ينبثق من المصدر الأصلي للأنا ومن معايشته لتجارب قصوى ووضعيات عبثية، ويسمح للوجود الإنساني باجتياز سجن الأحكام المسبقة ويصبح الفيلسوف هو الإنسان المتأمل الذي يثير القلق في صميم طمأنينة العالم ويتطلع إلى الوجود بأسره ويستوعب الأزمنة كلها.

ولأن التفلسف مرتبط بتفكير الإنسان والاستغناء عنه يعني الاستغناء عن التفكير وهذا لا يصح،لأن الفلسفة تفكير بالأساس. بهذا فإن الفلسفة كتفكير كثيرا ما ساهمت في تغيير أوضاع الإنسان لان فعل التفلسف هو الذي يحرك النشاط الفكري عند الإنسان ليتناول بالدرس والتحليل كل المفاهيم كالتاريخ، المعنى، المعرفة و الأخلاق...

من ثمة يتنزل مبحث التسامح ضمن سياق أكسيولوجي، مبحث أخلاقي يتحدد ضمن الفعل الإنساني استنادا للأفق الاجتماعي أو مرجعية الثقافية التي ينتمي إليها الإنسان. لذلك يمكن تعريف الأخلاق باعتبارها جملة من القيم وقواعد السلوك التي تستهدف الخير، هي جملة من النواميس الاجتماعية ينضوي تحتها الفرد.

غير أن الوعي المفاجئ برتابة الزمن ورجات الحياة وصدماتها مبعث للتفلسف لموضوع الأخلاق. و نظرا لعمق مسألة الإنسان في علاقته بالأخر فتظهر لنا أن المجال العلمي و القيمي هو المحدد لهذه العلاقات سواء كانت علاقات صداميه أو علاقات مصالحة.

أية علاقة تربط بين الإنسان والقيم؟ وأي إنسان هذا الذي تقوم حياته على أساس قيمي؟ هل هو الإنسان الفاعل المريد أم هو الإنسان الخاضع التابع؟ هل هو الإنسان في جوهره كما يجب أن يكون أم هو الإنسان المتواجد في التاريخ بتنويعاته وتناقضاته؟ و هل أن السؤال عن الأول يلغي السؤال عن الثاني أم هو يستلزم ويعقد وجوده ويطرح رهان تحرره مما هو كائن؟

لقد آمن الإنسان بأن مصير الإنسان بيد الإنسان وأن الذات الإنسانية ليس لها خيار سوى تأسيس وجودها النوعي. وهذا الإنسان حضوره في العالم وفي المجتمع يستلزم منه تكيفا اجتماعيا آليته الأساسية مبدأ الأخلاق. فالسؤال عن علاقة الإنسان بالأخر هو البحث عن كيفية تطبيق المفاهيم الأخلاقية وكيف نبرر ممارستها.

يظل الإنسان عاجزا على الإحاطة بمجموع القيم والمفاهيم الأخلاقية حتى ولو اكتسب من علم أو انفتح على الأخر. ومن ثمة لا يتحقق التسامح وقبول الآخر، إلا بالحوار والتواصل، والمشاركة الحقيقية في اتخاذ القرار، لأن إقامة حوار بناء،

نسخة غير قابلة للطباعة

وخلق فضاء للنقد والفكر المستقل يسود المجتمع حالة من الاستقرار والسلام والتعايش مهما اختلفت ديانتهم أو العرق وغيرها...

لكن العزم النظري الأهم الذي يحرك سؤالنا ألان هو أن نقف على حروف الإشكالي التالي: ما حيلتنا اليوم أن نسأل عن ثقافة التسامح؟ بل هل نحن بحاجة لثقافة التسامح؟

معنى التسامح

التسامح في أعم مفاهيمه يعني "العفو عند المقدرة، وعدم ردّ الإساءة بالإساءة، والترفّع عن الصّغائر، والسُّموّ بالنّفس البشريّة إلى مرتبة أخلاقيّة عالية"، والتّسامح كمفهوم أخلاقيّ اجتماعيّ دعا إليه كافّة الرّسل والأنبياء والمصلحين؛ لما له من دور وأهمّيّة كبرى في تحقيق وحدة، وتضامن، وتماسك المجتمعات، والقضاء على الخلافات والصّراعات بين الأفراد والجماعات، والتّسامح يعني احترام ثقافة وعقيدة وقيم الآخرين، وهو ركيزة أساسيّة لحقوق الإنسان، والديمقراطية والعدل، والحريات الإنسانيّة العامّة .وليس التّسامح فقط من أجل الآخرين، ولكن من "أجل أنفسنا".

الإسلام دين تسامح يتجه برسالته إلى عامة البشر كلها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسي دعائم السلام في الأرض قال تعالى:«فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ»[1]. كما يدعو الإسلام إلى التعايش الإيجابي من خلال التكافل الاجتماعي بين البشر جميعاً في إطار من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم. فالجميع ينحدرون من «نفس واحدة»، كما جاء في القران قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ».[2]

إن جملة المفاهيم كالعفو، والتسامح، والصفح، وعدم الظلم، والصبر على الأذى، والعطاء.. حيث جاءت نصوص قرآنية وأحاديث نبوية لتأكيد هذه المفاهيم، وإقامة أركان المجتمع على الفضل، وحسن الخلق ومنها قال تعالى:« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».[3]

فعل التسامح هو "احترام لحرية الآخر وطرق تفكيره وسلوكه وآراءه السياسية والدينية، كما جاء في "قاموس لاروس الفرنسي".

والتسامح هو " القبول لآراء الآخرين على مبدأ الاختلاف، وهو يتعارض مع مفهوم التسلط والقهر والعنف"، كما جاء في معجم العلوم الاجتماعية، و يعدّ هذا المفهوم أحد سمات المجتمع الديمقراطي. في هذا الإطار نحن هنا بحاجة لخلق فضاء للنقد والفكر المستقل، واحترام الأخر في طرق تفكيره وسلوكه وآراءه.

هل نحن بحاجة لثقافة التسامح؟

إن المجتمع المتجانس ثقافياً يتمتع بقوة مميزة خاصة به، ويخلق مناخاً تشترك فيه الثقافات المختلفة لحوار مثمر يعود بالنفع على الجميع، ويساعد على إقامة حس مجتمعي تكافلي، وبذلك يسهل عملية التواصل الداخلي بين أبناءه، ويغذي ثقافة كثيفة متماسكة ويمدها بأسباب الحياة.وإن قبول ثقافة الآخر المختلف لا يعني بالضرورة الاقتناع بها، إنما هو إقرار بوجود الاختلاف معها وبوجود هذه الثقافة وقبولها من قبل الآخر، شرط أن لا تكون تلك الثقافة مبنية على حساب حقوق الآخر أو وجوده، كما ويجب النظر إلى الآخر المختلف من دون تمييز بسبب الجنس أو الدين أو الخلفية الاجتماعية أو الاتجاه السياسي أو أي سبب آخر. وطالما أن الاختلاف لا يكون على حساب وجود الآخر أو حياته، فالآخر هو فرد مواطن، له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات، فيجب احترام هذا الاختلاف والعمل على قبوله مهما بلغت درجة الاختلاف، وتفعيلها بشكل طبيعي بما تنسجم مع واقعنا ومتطلباته.

نسخة غير قابلة للطباعة

إن التسامح والديمقراطية لهما اتجاهان أي اخذ وعطاء وتفاعل ايجابي مع قيم إنسانية جديدة بعيدة عن روح التعصب والكراهية وشطب الآخر المختلف. حيث إن غياب الديمقراطية تنعدم إمكانية تكافؤ الفرص في التعبير عن الرأي وان غياب العدالة السياسية تنقطع فرص الحوار والتواصل بين مكونات المجتمع وإن غياب سلطة القانون يقع الضرر على الجميع بدون استثناء.

ولأن الثقافة بشكل عام هي ثقافة إنسانية، لذلك لا توجد ثقافة عديمة القيمة كلياً، أو ثقافة كاملة مكملة تحتكر الحقيقة الإنسانية وتختزل ثراء الوجود وتمتلك حق فرض معاييرها وإيديولوجيتها وأجندتها السياسية على الآخرين، بما في ذلك الليبرالية. لذلك نرى بأن السبب الكامن وراء الاستقرار النسبي والغنى الثقافي لمعظم المجتمعات الغربية يعود بالضبط إلى حقيقة أنها لا تعتمد على عقيدة سياسية وحيدة أو وجهة نظر واحدة للعالم.

الثقافة هي عماد الأمة ، ولبنة تكوينها الأساسية ، وخطوتها الأولى نحو التقدم إذ تلعب دوراً جوهرياً في بناء الإنسان وتطوير المجتمع وتقدمه وبلورة الوعي الإنساني التي تعزز الشعور بالفردية والحرية والديمقراطية والمشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية وتسهم في تغيير العقلية السائدة.

والثقافة ضرورية لمواجهة قهر الحياة وتحديات العصر ومشاكله المختلفة،وللمؤسسات التعليمية والتربوية دور حقيقي في عملية التوجيه والتثقيف التي تحرر الإنسان من التقاليد السلفية والرجعية المتوارثة والتربية التقليدية،وتعمل على صقل شخصيته وتنمية وعيه،وتخليصه من السلبيات وأرث الماضي، وبناء مجتمع صالح وواع وملتزم قادر على مجابهة الصعاب والتطور الحضاري. من خلال تأسيس فضيلة التسامح يساهم في إحلال ثقافة السلام بدل ثقافة الحرب.

ولكن غياب ثقافة التسامح وقبول الآخر المختلف هو من أكثر عوامل الواقع الذي يعاني منه مجتمعنا في الوقت الحاضر، وهذا يمثل مسؤولية يجب أن يضطلع بها الجميع من قوى سياسية ومنظمات مجتمعية ومؤسسات ثقافية وحتى علماء دين، ولكن بعض ما تم ذكرها هو فاقد لما عليه أن يعطيه للمجتمع، وحيث أن فاقد الشيء لا يعطيه بأي حال من الأحوال.

إن الاعتراف والإقرار بثقافة التسامح وقبول الآخر والاعتراف به هو أمر جيد ومقبول نظرياً ولكن يجب العمل والنضال من أجل ترسيخ قيمة هذه الثقافة وتطبيقها في الحياة اليومية بشكل يعود بالفائدة على الجميع دون استثناء.

وهكذا فان الاختلاف والتعارض هو من صلب حياة البشر مثلما يختلف الليل والنهار والرجل والمرأة، والحق والباطل، والظالم والمظلوم بل هناك اختلاف في طبيعة الظاهرة نفسها والاجتهادات المختلفة بشأن تحقيق هدف واحد ولكن تختلف وتتنوع الوسائل أحيانا حد التعارض والانشقاق.

يقول غاندي:« أحب التسامح ولكني لا أجد أفضل منه للتعبير عمّا أقصده»، بحيث اعتبر غاندي التسامح هو القاعدة الذهنية في التعامل مع الآخر، لأننا لا نفكر جميعاً بنفس الطريقة ولا ندرك إلا جزءًا من الحقيقة ومن زوايا مختلفة. فكان التسامح محل تنظير وتفكير من قبل رجالات الفكر في القرن السابع عشر خصوصاً منذ فصل الدين عن الكنيسة، وظهرت الحاجة إلى التسامح بتمييز تطرف الكنيسة وتعصبها إزاء الآراء والمواقف التي تنتقد سلطتها وتضعها موضوع شك وبخاصة في القرون الوسطى.

وتطور مفهوم التسامح من الفرد إلى المجتمع إلى الدولة ثم إلى المجموعة الدولية، و لم يعد المفهوم اصطلاحياً أو لغوياً يرتبط بالتكرم والسخاء والجود والعفو والتساهل وغيرها، بل وصل إلى الاعتراف بالحق و احترام الحق وذلك بالحوار.

يظل الحوار لا معنى له إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين أطراف الحوار. و بهذا المعنى فإن الحوار يعني التسامح واحترام حرية الآخرين، واحترام الرأي الآخر لا يعني بالضرورة القبول به. وليس الهدف من الحوار مجرد فكّ الاشتباك بين

نسخة غير قابلة للطباعة

الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر، وإنما غايته هو إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين البشر، وتمهيد الطريق للتعاون فيما يعود على جميع الأطراف بالخير، وذلك بالبحث عن القواسم المشتركة التي تشكل الأساس المتين للتعاون البناء بين الأمم والشعوب.

ومن ثمة أصبح الحوار ليس فقط ذو أهمية بين الافراد أو الجماعات وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والحضارات والأديان على الرغم من الاختلاف.

فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النـــزاعات إلا من خلال الحوار. و لم يكتفِ القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذي ينبغي اتباعه في مثل هذا الحوار .وذلك في قوله تعالى: «وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْـــلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالّتِـــي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنّا بِالّذِي أُنْـــزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»[4] هكذا شكل لا يمكن للحوار بين الأديان أن يكتب له الاستمرار والتواصل إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين، وحل محل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة. وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصراً جوهرياً من عناصر عقيدة المسلمين.

فالأديان السماوية جميعها تُعد في نظر الإسلام حلقات متصلةً لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مر التاريخ الإنساني. ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي في أي حوار ديني بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود. فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة في التعاليم الإسلامية .والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية الدينية والثقافية، ومارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل.ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يُكرِهوا أحداً على الدخول في الإسلام. فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذي أكّده القرآن الكريم في قوله: «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»[5]، وفي قوله في موضع آخر :«فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»[6].

في وقتنا الراهن نحن في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين البشر أكثر من أي وقت مضى، نظراً لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع "يعيشون في قرية كونية كبيرة."ولا يتحقق التسامح وقبول الآخر، إلا بالحوار والتواصل، والمشاركة الحقيقية في اتخاذ القرار، لأن إقامة حوار بناء، وخلق فضاء للنقد والفكر المستقل يسود المجتمع حالة من الاستقرار والسلام والتعايش مهما اختلفت أعراق ومعتقدات أبنائه.

وإن الحوار والتواصل دائماً وأبداً هو الطريق الصحيح لحل كافة القضايا العالقة، وهو البديل الصحيح عن فرض الرأي بالقوة، وبالحوار نحافظ على التواصل والمحبة والسلام، ونعمق معاني الديمقراطية والتعاون، ولا يكفي لنجاح الحوار مجرد الدعوة إليه دون اتخاذ خطوات عملية تترجم ما اتفق عليه من قبل الأطراف المتحاورة على أرض الواقع، وتنمي الثقة بين المتحاورين، فإذا لم يطمئن المتحاورين إلى المصداقية في إجراء الحوار، وإذا لم تستبعد العوائق والموانع فيصبح الحوار بدون غاية أو هدف، أو مجرد حوار من أجل الحوار.

خاتمة

أن نشر ثقافة التسامح وقبول الآخر المختلف حاجة أساسية وملحة يجب زرعها في نفوس وعقول الناس، لأنها تساهم بشكل فعال في خلق جيل واع قادر على تحمل أعباء المسؤولية وقيادة المرحلة القادمة بشكل ايجابي وسليم، لأن مثل هذه

نسخة غير قابلة للطباعة

الثقافة تشكل ترسيخاً قوياً لمعالم الوحدة الوطنية التي ينبغي بناؤها على أساس من الثقة وبعيداً عن الهواجس وحسابات الربح والخسارة.

إن القول بوضع الإنسان للقيم هو" أمل فلسفي" يريد أن يجعل الإنسان كائنا راقيا بحق، وطبيعة هذه القيم هي أن تكون كلية و عامة. الإنسان في هذه المقاربة واضع للقيم لأنه بناء على إرادته الحرة نموذجا مدنيا يضمن تجسيم الجوهر الإنساني ألا وهو الحرية

إن الأخلاق بنية معرفية تخضع تماما إلى حتمية التطور فهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتطور المدني. أما القانون فهو صياغة خارجية و ليست داخلية بالنسبة للعقل والضمير. إن فقدان اليقين الأخلاقي هو مدعاة للتفلسف، وهذا اليقين الأخلاقي هو معرفة ما يجب فعله، وما يجب تركه. فهل يمكن أن يكون المجتمع هو منبع الواجب؟ أم أن علاقة الأخلاق بالواجب باعتباره الغاية الأسمى للفعل الأخلاقي الذي يحدد قيمته الإنسانية؟ أم أن المجتمع الإنساني يقوم على الروابط البشرية التي أساسها عقد أخلاقي يقوم على مبدأ الوعد كما أثبتها دافيد هيوم. فلاشك من أهمية مسألة الأخلاق ودراستها فقد كانت قلق الإنسان و محط تفكير وتأملاته. وعلى ضوء ذلك فإن هذا العمل هو بحث يساءل العقل بل هو انصهار كلي بما في واقعنا من تردي للأخلاق. لكن لماذا العنف والصراع و الحقد والكراهية التي يشهدها العالم اليوم ؟

في العصر الراهن، فإن احتكاك المجتمعات بعضها ببعض وتشابك المصالح بينها نتيجة لثورة الاتصالات و المعلومات جعل من التسامح و التعايش و الاتصال و الحوار المفتوح ضرورات لا بد منها لتحقيق مصالح المجتمعات جميعها.إن العالم بحاجة إلى التسامح.

إجمالا، الفلسفة تسعى إلى تحرير الإنسان من مكبلاته وتوسيع قدرته ومجال فعله لكن توسيع المجال والقدرة والفعل تهدده دائما مترلقات العنف و اللامعنى شأن ما تهدد الحرية إمساخات الأنانية. ومن ثمة، ألسنا بحاجة إلى مراجعة نقدية جينيالوجية لهذه الأخلاق الصورية؟ كما يقول نيتشه. ألم يحن الوقت لنفكر في أخلاق ونبدع أخلاق خارج أخلاق الخير والشر من شأنها أن تجعلنا نحتفل بالحياة؟

إن الإنسان حيوان ينشئ القيم ويعيش طبقا لها، فوجود الإنسان ليس وجودا بيولوجيا خالصا بل هو وجود يتحقق طبقا لقيم والإنسان ليس مهددا في وجوده البيولوجي بقدر ما هو مهدد في وجوده الإنساني إي القيمي والثقافي.

ما زال العالم بحاجة لتثبيت إيمانه أكثر بالتسامح الذي أصبح عبارة عن نسق كامل من الحقوق، ومن الواضح إننا لم نتعلم كثيراً من تجاربنا، وان المسيرة إلى ما بعد التسامح حافلة بالعقبات، حيث تبقى الخيارات محدودة ليعيش الناس بسلام في غياب الحوار والتسامح . لكن التساؤل الذي يطرح الآن إلى أي مدى يمكن توظيف فعل التسامح في مواجهة اللاتسامح في زمننا؟

الهوامش

[1] سورة الحجر آية عدد 85

[2] سورة النساء آية عدد1

[3] سورة النور آية عدد 22

[4] سورة العنكبوت آية عدد 46

[5] سورة البقرة آية عدد 256

[6] سورة الكهف آية عدد29

نسخة غير قابلة للطباعة